الاجنبية، وانشاء حلف دفاعي مع بريطانيا، والى منح بريطانيا افضلية اقتصادية لمدة خمسة عشر عاماً. وكان ذلك البروتوكول نتيجة تحالف بين بورجوازية سورية والعراق وفلسطين، الممثلة الايديولوجية للنهضة العربية، من جهة، والزعامة الاقطاعية العربية، من جهة اخرى.

بعد رجوع فيصل الى الحجاز، أجريت مراسلات بين حسين والمقيم البريطاني (المندوب السامي) في القاهرة، مكماهون. ويتوهم الكثيرون في البلدان العربية، من خلال ما كتب عن تلك الفترة، ان حكاية الاحداث فيها تتمثل في مسألة نضال وطني يقابلها غدر بريطاني. ومع ان الصفة الوطنية للنضال الشعبي، وللتضحيات، التي قدمت في تلك الفترة لا شك فيها، ولا شك، ايضاً، في غدر الاستعمار البريطاني، والفرنسي، بمختلف الاقطار العربية؛ الا ان ذلك ليس على النحو الذي صُور به. اذ لم يكن هناك اي اتفاقات بين الحكومة البريطانية كطرف، وحسين بن علي كطرف. فهذا الأخير لم يتصل برئيس الوزراء البريطاني، او بوفد رسمي يمثل الحكومة البريطانية، وانما انحصر الاتصال بعناصر دبلوماسية بسيطة، ومخابراتية، والوعود التي اسفر عنها جاءت غامضة ومليئة بالتحفظات والاستثناءات. على سبيل المثال، ان «... حكومة بريطانيا العظمى قد فهمت كل ما ذكرتم بشأنهما (أي بولايتي مرسين وأضنة)، ودونت ذلك بعناية تامة. ولكن بما ان **مصالح حليفتها فرنسا** داخلة فيها، فالمسألة تحتاج الى نظر دقيق، وسنخابركم بهذا الشأن، مرة أخرى، في الوقت المناسب» (جواب مكماهون الى حسين بن علي في ١٣/١٢/١٩١٥)، و«يسّرني، ان اخبركم، بأن حكومة جلالة الملكة صادقت على جميع مطالبكم ...» (جواب مكماهون في ١٠/٣/١٩١٦).

من الواضح، هنا، ان مكماهون لا يستطيع، ان يوّقع عن الحكومة البريطانية، ولكنه يستطيع ان يخدع باسمها. والواقع، ان الثمن الذي دفعته بريطانيا مقابل جهود حسين بن علي يتألف من بعض الاسلحة والامدادات، ومن اعانة شهرية له ولأولاده بلغت ٦٠ ألف جنيه استرليني.

من جهة اخرى، كانت مطاليب حسين بن علي من السلطة العثمانية الاعتراف به حاكماً مستقلاً وراثياً على الحجاز، فرفض الباب العالي ذلك، واستعد العثمانيون لارسال حملة كبيرة الى الحجاز يصاحبها أمير جديد لمكة. وكانت قوة حسين بن علي، يومذاك، تتألف، بشكل رئيس، من قبائل غير مدربة، بدأت في ٥ حزيران (يونيو) ١٩١٦ تحركها بقيادة اولاده علي وعبدالله وفيصل وزيد، فاستولت المفارز القبلية، باستخدام عنصر المفاجأة، على جدة وميناءي ينبع وام لج. وبعد شهر، استسلم الاتراك في مكة، واستسلمت حامية الطائف في ايلول (سبتمبر) ١٩١٦.

كان البدو مسلحين، حصراً، بعشرة الاف بندقية، يحاربون على الخيول فقط وغير مدربين على القتال بالسلاح الابيض. وفي الوقت ذاته، كانوا عاجزين امام المدافع والرشاشات وحركتهم تفتقر الى الانضباط.

وفي اعقاب الانتكاسات الاولى، ارسل العثمانيون امدادات جديدة من سوريا بواسطة الخط الحديدي الحجازي. وازاء ذلك، طلب حسين بن علي النجدة من بريطانيا، ولكنه لم يحصل عليها لسببين: الأول، هو ان القيادة البريطانية كانت تريد اشغال العثمانيين في الحجاز، لا اشغال قواتها؛ والثاني، انها كانت تريد حصر المساعدة بالأسلحة الخفيفة، كي لا تشكل تهديداً، ولو بسيطاً، لها في المستقبل. ونتيجة لذلك، تألفت المساعدة البريطانية من كمية